المظاهر اللغوية والأسلوبية
في شعر محمد البزم

د. محمد رضوان الداية(*)

في الدراسات القليلة التي عُنيت بأحد شعراء الشام في زمانه « محمّد البزم » كان الجانب اللغوي في شعره، وما رافقه من أخذ الشاعر بالجزالة في الأسلوب، والمتانة في العبارة، واختراق شعره للتراث العربي؛ هو المستأثر بعناية أولئك الدارسين: يتفقون في الآراء والرؤى، ويتقاربون في التعليل، وفي الشواهد والأمثلة.

وقد أعان محمد البزم بالتزامه الفصحى الجزلة أو المبسّطة في حياته العامة أولئك الدارسين أو المترجمين له على تعميق تلك الآراء والرؤى، حتى إن موقف قارئ تلك الدراسات يكاد يبدو ثابتًا، وتبدو الأحكام قاطعة.

ولاشك في أن قارئ ديوان محمد البزم، ولو كان من أهل الاشتغال بالأدب واللغة يحتاج إلى الاستعانة بالمعجم في قسم من شعره.ومن هنا كانت الشروح القليلة التي وُضعت في حواشي الديوان غير كافية، وقد جاءت أحيانًا مخالفة للمعنى الذي أراده الشاعر.

وفي هذا البحث وقفة عند المظاهر اللغوية والأسلوبية في شعر محمد البزم، لا أكاد أتجاوز إلى غيرها، إلا إذا كانت الأمور متداخلة، ويقتضي ذلك إشارةً أو إلماحةً أو إضاءةً؛ فإن القضايا التي تُستخرج من ديوانه كثيرة ومتشعبة تتداخل حينًا وتتفاصل حينًا.

(*) باحث في الأدب والتراث من سورية.

ولايكاد يشبه ديوانَ البزم في هذه المدة التي نبغ فيها ديوان آخر.

(١)

محمد بن محمود البزم (١٣٠٥ – ١٣٧٥ هـ / ١٨٨٤ – ١٩٥٥ م) سليل أسرةٍ وفد أحد أفرادها من العراق إلى الشام، فسكن دمشق، واستمرّ فرع الأسرة فيها، وتدمشقوا إلى هذا اليوم. وفي هذا الملمح قال البزم في قصيدة: (إلى معروف) وهو معروف الرُّصافي[(١)].

أنا ابن دمشق منبتُ المعالي وفي الزَّوراء لي حسَبٌ مجيدُ

- والزوراء من أسماء مدينة بغداد.

- وفي ترجمة خير الدين الزركلي للبزم، وهو صديق قديم له أنه: شاعر أديب، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق، مولده ووفاته فيها. كان واسع المعرفة باللغة، كثير المحفوظ من الشعر والنثر، حَسن الترسّل في إنشائه، نقّادًا عنيفًا[(٢)].

وسأشير إلى ما استخلصتُه من سيرته، ومن أخباره، ومن شعره بملاحظات عامّة على العناصر المكوّنة لشخصيته المفسّرة لجوانب أساسية من حياته، الممهّدة للكلام في شعره وخصائصه اللغوية والأسلوبية؛ وسأجعل ذلك بديلًاعن التفصيل في أخباره ومجريات حياته؛ حرصًا على شغل المساحة المتاحة بالموضوع الأساسي الذي يدور البحث حوله، ويعالجه.

١- **الرّغبة في مسابقة الزَّمن**. فقد وصل البزم إلى سنّ العشرين وهو يعمل مع والده في محل لبيع المنسوجات، وتنبّه في زيارة عارضة إلى المكتبة الظاهرية، فتحوّل إلى

(١) ديوان البزم ١: ٣٢٧.

(٢) الأعلام ٧: ٩١.

طلب العلم، واتخذت حياته مسارًا آخر، وكان تعلمه الحقيقي بدأ في هذه السنّ المتأخرة. ونقرأ في بعض سيرته الذاتية: «فأبَهتُ إذ ذاك (فطنت وتنبّهت) لضرورة درس العربية وفنونها، وطفقتُ أنتابُ حلقات شيوخ دمشق وعلمائها أصرف همّي من عالم إلى عالم حتى قذفتني العناية إلى الأستاذ عبد القادر بدران[٣]، فقرأت فيما يقارب ثلاثة شهور شيئًا من **ديوان المتنبي**، ونحوًا من: **مغني اللبيب** لابن هشام، وصدرًا من: **دلائل الإعجاز** لعبد القاهر الجرجاني، وكُتيّبًا في **الأصول**، ثم لم ألبث أن اتصلت بنابغة علماء دمشق السيد جمال الدين القاسمي[٤]، فقرأت عليه في بضعة شهور شيئًا من العربية والبلاغة والمنطق، وكان قد نزل في دمشق أحد علماء تونس السيد صالح التونسي[٥]، فقرأت عليه في أشهر قليلة كتبًا في علمي المنطق والكلام، وأخرى في العربية والأصول، ثم انصرفت إلى المطالعة بنفسي حتى كان عام ١٩١٣ فانتدبني الشيخ كامل القصّاب[٦] مدرّسًا للعربية في مدرسته «العثمانية»... إلخ.

(٣) عبد القادر بن أحمد بدران (توفي ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٧ م) فقيه أصولي حنبلي، عارف بالأدب والتاريخ. ولد في دوما بالغوطة وتوفي بدمشق. له ديوان مطبوع، وله مؤلفات في الفقه والأصول والتاريخ والآداب. واختصر تاريخ دمشق لابن عساكر. (مقدمة الديوان).

(٤) جمال الدين القاسمي(١٢٨٣ -١٣٣٢ هـ = ١٨٦٦ – ١٩١٤ م) إمام الشام في عصره علمًا بالدين وتضلّعًا من فنون الأدب. كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد. نشر بحوثًا في التفسير وعلوم الشريعة والأدب. وكان غزير النتاج سائر الكتب، منها كتابه محاسن التأويل في التفسير (مطبوع). الأعلام ٢: ١٣٥.

(٥) صالح التونسي: أحد نزلاء دمشق من علماء تونس. عمل بالتدريس، وكانت له حلقة في المسجد الأموي.ذكره علي الطنطاوي في ذكرياته وأثنى عليه وقال إنه تميّز بالوعظ والكلم الطيب.

(٦) محمد كامل بن أحمد القصاب (١٢٩٠-١٣٧٣ هـ / ١٨٧٣ – ١٩٥٤ م) من زعماء

وصحّ تعليق الدكتور إبراهيم كيلاني على هذا المقطع من كلام البزم: «إن محمد البزم مثال للعصامية»[٧]، لقد طوى البزم المراحل واختصر الزمن وأدرك الركب، فلما استوى على مكانة الأديب الشاعر، كان همّه أن يرقى إلى منزلة الشاعر ذي المزايا والشهرة والتألق والأثر. وفي ديوانه قصائد خاصة بشعره والشعر عامة، وقصائد كثيرة يقف فيها وقوفًا واضحًا عند رأي نفسه في شعره وشاعريته.

- وقد قال في إحدى قصائده[٨]:

أنا المجلّي في البيا ... نِ لم أكنْ قطُّ الوسطْ

- وقال وهو يتحدّث عن نفسه أيضًا[٩]:

وكذا الأفلاك ملـ ... ـك الشّعراء النابهينْ

- وارتقى مرتقًى عاليًا في قصيدة «الشاعر»[١٠]:

الاستقلال أصله من حمص. من أهل دمشق دخل في مجال العلم فجأة بعد مدة من الفتاء، وبرع في علوم العربية والشريعة والقراءات وأنشأ مدرسة الكاملية وانخرط في جمعية الفتاة العربية، وشارك في الثورة العربية، وجاهد فرنسة وحُكم عليه بالإعدام غيابيًّا. وتولى إدارة المعارف عند الملك عبد العزيز ثم استقر في حيفا، وأنشأ مدرسة مع الشهيد عز الدين القسام. وعاد إلى دمشق بعد محو بعض أحكام الإعدام. وله مشاركة في التأليف.(من الأعلام ٧: ١٣ .وكان الزركلي مؤلف الأعلام من أصحابه).

(٧) محمد البزم لإبراهيم الكيلاني: ٢٠٠.

(٨) ديوان البزم ٢: ٧٣.

(٩) المصدر السابق ٢: ٨٨.

(١٠) المصدر السابق ١: ٣٢٤.

إنـــما الشّاعـــر فـــي أمّتـــه مرســـلٌ مـــن ربـــّه لـــو يهتـــدونْ !

- والمجاز في الشعر واضح.

وفي هـذه الفقـرة إشـارة مفيـدة في ترجمتـه وشخصـيته، فقـد شـابه البـزم في فجـاءة انتقاله إلى حلبة العلم بعد مدّة من العمر أستاذه محمد كامل القصاب، فإنه بعـد مـدة مـن زمان «الفتوة» والانقطاع إليها رآه الناس يدخل مسجد محلته « العـُقيبة » ويحتلّ غرفـة فيه وينقطع إلى العلم. قال الزركلي في ترجمته في (الأعلام): «وأمضى في اعتكافه أعوامًا تفقّه فيها وبرع في علوم العربية والقراءات **وخرج إنسانًا آخر**.... ».

٢- تأصل النزعة الوطنية في حياته، وشعره، ونموّها مع الزّمن.

منذ مدّة مبكـرة مـن حياتـه الأدبيـة أخـذ ينشـر في الصـحف قصـائد ومقطوعـات قومية - كما وصف ذلك د.الدهان - فيهـا حضٌّ للعـرب عـلى النهـوض مـن إغفـاءتهم، والمطالبة بحقوقهم المغصوبة بيد الترك (وكان النّفوذ آنذاك لجماعة الاتحـاد والترقـي التـي رفعت شعار التتريك)؛ فذلك الجانـب مـن شـعره يمثـل «الـوتر الـوطني القـومي»[١١]، الذي ظل محمد البزم يضرب عليه مدة حياته. وقدَّر د. الـدهان أن ذلـك اسـتمر في بدايـة حياته بين ١٩٠٧ – ١٩١٣ حتى شهـَر الـترك النفـير العـام الـذي سـبق الحـرب العالميـة الأولى. وانخرط في الخدمة العسكرية كاتبًا. وقـد ظـل عـلى انتمائـه الـوطني العـربي طـوال حياته، منذ «شبوب الثورة السورية الكبرى سنة ١٩١٦ بقيادة الشـريف حسـين بـن عـلي حتـى معركـة ميسـلون في ٢٤ تمـوز ١٩٢٠، والثـورة السـورية ١٩٢٥ إلى معركـة الجـلاء ١٩٤٦، فقد وجدت كلها صدًى في نفسه، فعبّر عنها بشعرٍ يفيض عاطفةً صـادقةً وإيمانًـا

(١١) الشعراء الأعلام في سورية: ٣٧.

ثابتًا يمجد الأمة العربية ورسالتها في الحاضر والغابر»[١٢].

وقد دخل محمد البزم السجن مدةً من الزمن، وذكر ذلك في قصيدة أولها:

لا السجن يردعهُ ولا أغلالُه عن غايةٍ تسمو لها آمالُه

وفيها[١٣]:

مقَتوهُ إذ نقموا عليه جَلالَه فسعوا به كي لا يبين جلالُه

ووشَوا به ولَوَ انّهم ملكوا له موتًا لأصْمَتْهُ الغداةَ نصالُه

(أصمى الصَّيدَ: أصابه فوقع بين يديه. ونقل الشاعر ذلك إلى الإنسان).

٣- الصَّبوة والحنين إلى أصله القديم (في بغداد).

وقد عاد البزم إلى هذا الارتباط والحنين مرارًا، ونقرأ له في الديوان[١٤]:

جِلَّقٌ منبت جسمي وعلى دجلةٍ محْتِدُ قومي الغابرينْ

وإلى بغداد مَهْوى النفس لي أنّةٌ تنتابني حينًا فحينْ

وهما من قصيدة (وَداع).

ولكن هذه الصبوة ليست خالصة لوطنه الصغير وحده، فهي موصولة بالعرب، متماسكة معهم، إنه احتفل بالغصن ليصل إلى الارتباط بالشجرة كلها، وقد قال وراء البيتين السابقين:

و حَشًا تهفو إلى أمّ القُرى مهبط الوحي، ومهد الراشدين

(١٢) محمد البزم – إبراهيم الكيلاني: ٢١٨.

(١٣) ديوان البزم ١: ٢٦١.

(١٤) ديوان البزم ١: ٣٢٤.

وفـــؤاد سؤلـــه فـــي يثـــرب كاهـــل المجـــد وأرض الفـــاتحين
وبنجـــد لا تعدّاهـــا الحيـــا منعـــة العُـــرب ومثـــوى المتقيـــن
وعـــلى البطحـــاء مجـــد غـــابرٌ شـــاخصٌ أخلقـــه كـــرُّ السنيـــن
وبصنـــعاء تخطاهـــا الأذى عِـــزّة الليـــث إذا حـــلّ العَريـــن

.... والقصيدة طويلة.

٤ – **اختلاط حالين مختلفتين في نفسه**، وتلازمهما معًا:

أ) النزعة الفطرية إلى الحياة الطبيعة، والتوق إلى ملابسة الدنيا بما فيها من مقوّمات العيش، ولقاء الناس، والانفعال بمعطيات العمل (وهو التدريس أساسًا) والنشر في بعض الصحف، والأداء الإيجابي في مجالات المجمع العلمي العربي، وقد اختير عضوًا عاملًا فيه (منذ ١٩٤٢م).

ب) والميلُ إلى التشاؤم مع قدر كبير من الحزن والأسى، وقد سجّل البزم نفسه بقلمه قوله: و« فقد لقيتُ منذ الصغر من إلحاح المصائب، وولع بنات الدهر بي ما وَلّد في نفسي كرهًا للحياة، ونفرة من أكثر أبنائها، فلم تبدُ لي إلا شمطاء متنكرة، جهمة الطلعة، عبوس الوجه، مكروهة الشمّ والتقبيل.. »[١٥].

ويجد قارئ الديوان هاتين النزعتين واضحتين في شعره يبثّ منهما حيث يجد ذلك مناسبًا، أو ممكنًا، ونلمح هذا في واحدة من قصائده التي ذكر فيها نفسه مباشرة أو على وجه من وجوه القول أولها[١٦]:

(١٥) محمد البزم – إبراهيم الكيلاني: ٢٠١.
(١٦) ديوان البزم ٢: ١ – ٢.

سـامه الـدهرُ خضـوعًا فـأبى ودعـاهُ للمعالـي فحَبَـا

وآخرها:

نُـوَبٌ تَتَـرْى، وجَـدٌّ عـاثر آهِ مـا أفجـع هـذي النُّوبـا !

ويبدو أنّ الشاعر لم يكن يصبر على ما يجد (أو على ما يعتقد) أنّه نوب ومصائب متوالية، وإن قال في القصيدة:

وكـذا الحـرُّ إذا خطـبٌ عـرا أظهـرَ البِـشرَ وأخفـى الغـَضبا

٥- النزعةالعربية التي تأصلت في نفس الشاعر من جهات متعددة:

أ) **النزعة إلى البداوة العربية**، والتَّوق إلى دخول الصحراء العربية، والبوادي الممتدة، مخترقًا الحدود المُصطنعة التي أدرك إنشاءها (مع معاهدة سايكس بيكو)، وقد قال[١٧]:

فلأرحلـنّ إلى الجزيـرة رحلـةً بدويّـةً والقَفْـرُ يرقـصُ آلُـهُ

(حيث يكثر الآل: السراب)

ولأمضـينَّ عزيمـةً عربيـةً لا المـوتُ يرهبنـي ولا أهوالُـه

ب) **الأخذ بقضية العروبة بالمعنى السياسي** (توحّد العرب) **والمعنى القومي**: فهو ينظم قصائد لمدن في سورية مثل دمشق، وحمص وحماة وغيرها، وينظم قصائد لمصر وطرابلس الغرب وغيرها. وقد قال في قصيدة: (مصر)[١٨].

حـيّ العروبـة والصِّيْـدَ الميامينـا في مصرـ وانشـد فـؤادًا ثـَمّ مرهونـا

(١٧) ديوان البزم ١: ٢٦١ .

(١٨) ديوان البزم ١: ٢٤.

ج) **استغراق الذات في اللّغة العربية والثقافة العربية**، فقد اتخذ الشاعر محمد البزم (اللغة العربية) باتساع هذا المقصد قضيّةً شغل بها نفسه، وخصّص لها جزءًا كبيرًا من اهتمامه: تعليمًا، ونشرًا، ونشيدًا شعريًّا.

وفي قصيدة (عن العروبة وإليها) خطابٌ للعربي في كل مكان من الوطن، وتحميلُ رسالة[١٩]:

عن العروبة رَيّا الظلّ وارفةً ... إلى العروبة تسبيحًا وفُرقانا

إلى العروبة طمّاحًا سُرادِقها ... مهْوى القلوب ومَجْلى الحق عُريانا

عن الفتى العربيّ القُحّ يُرسلها ... آيًا مرتّلةً دينًا و إيمانا

والعربي القحّ (الصّافي، الخالص من الشوائب) هو الشاعر نفسه، صاحب الرسالة العربية، الحقيقية:(لغةً ومشاعر: وتماسك أمّة، وخصائص حضارة) ولهذا قال في آخر القصيدة:

أنا الحَفِيُّ بها قِدْمًا وشاعِرُها ... فليس بِدْعًا إذا أيقظتُها الآنا

٦ - **ظهور الحِدّة في التّعامل** مع مَنْ حوله، وما حوله، في مجالات كثيرة؛ وهي حدّة مستفادةٌ من الميل إلى التشاؤم، والاعتداد بالذات، والشعور باهتضام الحق الأدبي.

وقد أدّت به هذه الحِدّة، والظروف التي اجتمعت في بعض الأحداث مع ذلك «المزاج» إلى سرعة الانفعال مع بعض معاصريه، وفيهم الأستاذ محمد كرد علي، وإلى الاشتطاط في نظم أشعارفي بعض معاصريه انتقل بها من الدّعابة المقبولة إلى العبث:

(١٩) ديوان البزم ١: ٢٣٩.

«الذي يصل إلى حدّ التجريح والإيذاء»[٢٠]. وقد نقل الدكتور إبراهيم الكيلاني من ذكرياته عن البزم طرائف من تعامل البزم مع طلابه حين كانوا يقعون في أخطاء لغوية، أو حين كانوا يتكاسلون في دراستهم، في تعليقات لاذعة أو هي تثير السخرية القوية[٢١].

وقد نظم من باب – الدُّعابة – شعرًا على لسان بعض زملائه. وكان فيها «دعابات» تركت آثارًا غير حميدة. وله خبر مع عزّ الدين التنوخي في قصيدة نسبها إليه، تُذكر تعجّبًافإنها أسهمت في إلغاء عقد التنوخي(حيث كان يعمل) !

(٢)

سمّى الدكتور سامي الدّهان[٢٢] ما عرف من مؤلفات محمد البزم، ووصف بعضها:

- فمنها كتابٌ في اللحن الذي سَرى في كلام العرب درس فيه أسبابه وأنواعه، (ولم يسمّه د. الدهان).
- وكتاب «النحو الواقع ».
- وكتاب « الجواب المُسكت »، وهو مجموعة كبيرة لكل جواب مسكت قالته العرب(مخطوط).
- وكتاب آخر هو «الجحيم».
- و «ديوانه» الذي سعى د. الدهان شخصيًّا لطباعته أيام كان مقرّرًا للجنة في

(٢٠) الشعراء الأعلام في سورية: ٤٣.

(٢١) محمد البزم – إبراهيم الكيلاني: ٢٠٣ – ٢٠٥ .

(٢٢) الشعراء الأعلام في سورية: ٤١.

المجلس الأعلى للآداب والفنون بالقاهرة، ولكن الذي طُبع من هذا كلّه: ديوان البزم في جزأين عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – دمشق – أمّا الزركلي صاحب الأعلام وصديق محمد البزم فقد ذكر له:

«**كلمات في شعراء دمشق**» رسالة نشرها متتابعة في جريدة الميزان الدمشقية (آب وأيلول ١٩٢٥).

– **وكتاب على** نسق «**رسالة الغفران**» لم يبيّضه ولم يتمّه.

قال الزركلي: قرأ لي فصلًا منه في نقد أئمّة النحاة واللغويين...

وهو الكتاب الذي سمّاه البزم باسم «الجحيم».

ونخرج من هذه العناوين، وبعض الأخبار المتعلقة بها، وبعض الإشارات ممّن قرأ شيئًا منها إلى أن اللغة العربية وقضاياها كانت شغل محمد البزم الشاغل. وكانت له آراء في النحو العربي:تدريسه والتأليف فيه، وآراء في بعض النحويين واللغويين القُدامى. وكان يرى أن جماعة من المشتغلين بالنحو العربي هم الذين عقّدوه، وعدّ ذلك التعقيد المقصود «ناحية من نواحي الحرب الضّروس التي شنّتها الشعوبية على العرب»[٢٣]، ونظم بعض أفكاره شعرًا،ومن ذلك قوله في قصيدة عن المعري[٢٤]:

تلاعب بالنحو النحاةُ فَصُرِّفتْ قضاياه في أغراضهم وعناصرُه

وأصبح نحو العرب في حَوْزِ عصبةٍ شعوبية أرباحه ومَتاجِرُهْ

ومن ثنائه على المعرّي دفاعُه عن العربية ونحوها وخصائصها وذوده عنها:

فكشّفتَ من أحوالهم كل فاضح وأحللتَ كُلَّاحيث تبدو مناحِرُهْ

(٢٣) محمد البزم – إبراهيم الكيلاني: ٢١٠.

(٢٤) ديوان البزم ١: ١٩٩.

وأدخل البزم نفسه مع المدافعين عن العربية عامة والنحو خاصة:

وأسهرتُ من جفنيّ عشرين حجّة بهم ولهم أحيي الدُّجا وأحاضِرُهْ

لقد كان واحدًا من جمهرة علماء وأدباء أخذوا على أنفسهم عهد الدفاع عن العربية، فيهم سليم الجندي وعبد القادر المبارك[٢٥] وعبد الغني الباجقني، وقد تتابعت بعدهم أعداد من المخلصين أمثالهم.. وقبل أن نذكر آراء بعض دارسي البزم في أدبه عامةً وفي شعره خاصة من جهة اللغة و الأسلوب، ننقل عنه قوله إنه التفت إلى كتب التراث «غَرَفًا من المعاجم، وكتب التفسير، وشروح الشعر، والحديث والأدب، والتاريخ، وتراجم الرجال عامة، غير كتب النحو الطامية في بحر....»[٢٦].

وتحت كل واحد من هذه العناوين تفصيلات كثيرة تظهر لقارئ شعره، فإن أشعاره ترْشحُ على وجوه شتّى بذلك المعين الخصب من اللغة والأدب وسائر جوانبهما، والإشارات و«الإفادات» من الشعراء – خاصة – ومن غيرهم.

هذا الاستغراق في حفظ اللغة، وحفظ النصوص الأدبية؛ والإشراف الواعي على شروح الشعر العربي القديم كشرح حماسة أبي تمام وشرح المفضليات، والمعلقات، وما شابه، والاستفاضة في دراسة النحو والصرف والعروض والبلاغة واستبطانها، واستفادته الكافية – كما يبدو – من كتب التفسير والحديث والفقه، مع ذهنٍ وقّاد، وشاعرية عالية كلّ أولئك شكّل سبيكةً خاصّة هي نتاج محمد البزم الشعري: تحملُ هويته العاطفيّة والفكرية والحياتية، وتنضح عن « عقيدته» اللغوية التي تماهت في مواقفه العروبية التي تحمل قضايا العرب و (المسلمين) في

(٢٥) ذكريات علي الطنطاوي ٥: ٢٦٦.

(٢٦) محمد البزم – الكيلاني: ٢٠١ – ٢٠٢.

العصر ـ الحاضر، ولا تغفل عن الانشغال بالمواقف العروبية في التاريخ، ويجد القارئ هذا التماهي في الحاضر، وفي الماضي القريب والغابر في قصائد كثيرة، وفي مواضع متعددة في كل قصيدة تدور في هذا الفلك.

ونقرأ في قصيدة (الذكرى) التي تنضح «ذاتيّةً» وتتفجّر عروبة[٢٧]:

وبُعِثتُ من عِظَمِ العروبة شامخًا شَمَمًا يُطلّ بها على الركبانِ
وجلوتُ من أمجادها وجمالها جُملًا تخلّدها يد الأزمانِ
وتركتُ شانئها بكل قرارةٍ يكبو وينهضُ في يد الخذلانِ

والأبيات: تجري على هذا النَّفس العالي...

وبنى قطعة من شعره في قصيدة يوم الجلاء على بيت من الشعر في قصيدة طنانة لصديقه خير الدين الزركلي. قال البزم[٢٨]:

يوم الجلاء وما في الأرض ذو عظمٍ يبغي كفاءك إلا خانه العِظَمُ
لو كنت في عهد آباء لنا غَبَرتْ في الجاهلية لم يُعبد لها صنمُ
وكنت كعبتها الكبرى يطيرُ إلى أركانها الشمّ طوّاف ومستلمُ

في أبيات أخرى حسنة السبك جيدة المعاني. وكان الزّركلي قد قال[٢٩]:

لو مثّلوا لي موطني وثنًا لهممت أعبدُ ذلك الوثَنا

من قصيدة ذائعة الصّيت.

(٢٧) ديوان البزم ١: ٣٣١.
(٢٨) ديوان البزم ١: ٥٧.
(٢٩) ديوان الزركلي: ٢١.

(٣)

في ترجمة محمد البزم في كتاب « الأدب العربي المعاصر في سورية» لسامي الكيالي[٣٠]، أن أبرز شعراء سورية بعد الحرب العالمية الأولى: محمد البزم، وشفيق جبري، وخليل مردم بك، وخير الدين الزركلي؛ وهم «مدرسة تُعنى عناية بالغة بالمبنى... الصياغة أوّلًا، ثم تأتي الفكرة في تضاعيف الكلام، وربما كان محمد البزم أكثر زملائه عناية بالصياغة ».

وكان الدكتور إبراهيم الكيلاني على صلة بمحمد البزم، وقد تحدث عن بعض أحواله وأخباره، ونوّه بإتقانه للغة وحفظه الكثير من النصوص التراثية، والتزامه الكلام بالفصحى أو الفصيحة الميسّرة، وله أكثر من تعليل لهذه الصورة اللغوية التراثية لمحمد البزم، التي لازمته، والتي كان مسرورًا بها.

فالبزم قد استقامت لغته من «إدمانه على الكتب الصفراء – يعني كتب التراث العربي على اختلاف أنواعه – وحبّه للعربية، وشغفه بها حتى صارت ملكةً أصيلةً،بل جزءًا من نفسه، وتركيبه الذهني؛ تتجاوب وانفعالاته. ومما ساعده على التبحّر بها، والتعصب لها عدم تأثره بأيّ ثقافة أجنبية، فقد بقي ضمن حدود الثقافة العربية القديمة: تحدّرت إليه رأسًا من الخليل وسيبويه والأخفش، وأبي تمام والبحتري والمتنبي والمعرّي. ولعل للعوامل النفسية أثرًا في تملكه ناصية اللغة، فقد كانت فيه حوافز دفينة ومركّبات وعقد نفسية – كذا- تدفعه إلى إجادة اللغة ونظم الشعر والتفوّق في مضمارهما بعد أن

(٣٠) الأدب العربي المعاصر في سورية – سامي الكيالي – دار المعارف بمصر – ط ٢- ص: ٢٢٠.

- ولم يضف أحمد الجندي جديدًا في كتابه شعراء سورية في ترجمة البزم ٧٠ – ٨٢.

حُرِم من العلم طويلًا؛ فكأنه إذا أجاد اللغة والنظم، أو خاطب الناس بلغةٍ أشرف من لغتهم وأنقى وَجد في ذلك تميزًا ومَثالةً[٣١] ومخالفة لما ألفوه من عُجمة ورطانة وركاكة، وقديمًا قيل: التباين رائد الاستعلاء»[٣٢].

هذا الاقتباس من مطالعة د. الكيلاني في شعر البزم وصلته بالتراث العربي جاءت على سبيل الدفاع عنه ممن يرمونه بالتنطّع والتّفاصح.

ووضع الدكتور الدهان شعر محمد البزم في هذه الدائرة أيضًا، وأورد من قصيدة (السجن) قطعةً منها[٣٣]:

فلأرحلنَّ إلى الجزيرة رحلةً ... بدوية والقفرُ يرقصُ آله

ولأمضينّ عزيمة عربية ... لا الموت يرهبني ولا أهواله

وليرقلنّ إلى المنى بي بازلٌ ... حتى يبلّغني المنى إرقالهُ

وليقذفني سبسَبٌ في سبْسبٍ ... ويظلّني عند الظهيرة ضالهُ

وعلّق على هذا الشعر في ترجمته له: «وشعر البزم في الواقع منذ هذه المرحلة (المبكرة من حياته الأدبية) كان يغصّ بالمفردات والصورة التقليدية. وظل كذلك طوال عمره. فقد كان يغوص على المعاجم، ويرافق كتب اللغة، ويصحب قواعد النحو، فلا يقع في ضعف، ولا يزلّ في ركاكة، فكأنه يعيش في القرون العربية الأولى لشدة تحمّسه في حب اللغة،والحفاظ عليها كتحمسه في العروبة و العمل لها»[٣٤].

(٣١) الشعراء الأعلام في سورية: ٤١.

(٣٢) المَثالة: الفضل (المعجم الوسيط).

(٣٣) ديوان البزم: ١: ٢٦٢.

(٣٤) الشعراء الأعلام في سورية: ٤٠.

وكان حكم خير الدين الزركلي على شعر محمد البزم وهو يترجم له في الأعلام على قِصره وإيجازه مختلفًا، وفيه رؤية نقديّةٌ دقيقة، قال: «وكان طويل النَّفَس فيما ينظم، تستهويه الجزالة، حتى قد تشغله عما يجول في نفسه من مُبتكرات المعاني»[٣٥].

فالبزم يُطيل في القصيدة ما شاء، ويستغرقُ المعاني الملائمة لموضوعه فلا ينقطع له نَفَس، ولا يخفتُ له صوت، ولا يضطربُ في شعره مستواه، ولا تعوزه كلمة مناسبة، ولا عبارة ملائمة.

وهو **تستهويه الجزالة**. نعم. وقد تكون الجزالة «على حساب» ظهور المعاني المبتكرة واضحةً لائحة. على أنّ في جُملة شاعرية البزم قدرته على ابتكار المعاني من جهة، وعلى توليدها في براعة وقدرةٍ ذاتيّة من جهةٍ أخرى.

(٤)

كان لاتّساع محفوظ محمد البزم من جهة، وتعلقه باللغة العربية واستبحاره في معاجمها وخصائصها من جهة أخرى أثر كبير في إسباغ هذه الملامح صفة الجزالة على شعره، وفي توكيد أثر هذا الاتّساع اللغوي والتراثي في أسلوبه في نظم الشعر، وفي خصائصه العامة أيضًا.

على أنّ الإنصاف للشّاعر وشعره يقتضي:

- بيان موقفه من الأخذ المباشر عن القدماء (السرقة بأنواعها).
- وجلاء قضية أثر التوسع اللغوي عنده في إسباغ صفة الصعوبة اللغوية أو الإكثار من الغريب.

(٣٥) الأعلام ٧: ٩١.

- وبيان حقيقة استغراق هذه «السيطرة اللغوية» في شعره في قصائد ديوانه ومقطعاته.

- وبيان تأثّر محمد البزم بالتّراث عامة (كما يظهر ذلك في بناء شعره): ألفاظًا ومعاني.

- وتأثّره بشعراء معينين، واقتفاء أثرهم في جوانب من أشعارهم: في الموضوعات والأساليب؛ و «خلفيات» ذلك التأثر.

- وبيان الوجه الآخر من شعر البزم الذي يتخفّف فيه من غرابة اللغة وسيطرتها.

- والإشارة إلى نفوذ شيء من الملامح الشّعبية في بعض شعره. وهذا غريبٌ عمّا قرّره دارسو شعره، ولكنه موجودٌ وطريفٌ، ويكمّل حقيقة صورة محمد البزم الذي عاش في دمشق من أسواقها الشعبية إلى مراقي مدارسها ومعاهدها ومجمعها العلمي.

- ....

ومحمد البزم يُنكر على الشعراء الإغارةَ على أشعار غيرهم أو سلب معانيهم وصورهم وأفكارهم وسائر نظمهم، قال[٣٦]:

يا عَبيد الشعر قد أبـ ... ـرمْتمُ الليلَ دبيبا

وأغرتم فتركتم ... شاعر القوم سليبا

....

قد لبستم من سليب الشـ ... ـعر كتّانا وخزّا

(٣٦) ديوان البزم ٢: ٨٢.

واضطجعتـــــــم بجُنـــــــوبٍ ... لا تحـــــسّ الـــــدهرَ وخْـــــزا

فهذا موقف واضح من السَّرَق ، يعترض عليه، ويُنكره؛ ومثله قوله:

أفكـلّ مـن سـلب الأوائـل قـولهم تدعونـــه بـــأخي البيـــان الســـائِر ؟[٣٧]

– ولكـن محمـد البـزم « يسـتفيد» في شـعره مـن النصـوص المحفوظـة ابتـداء مـن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، من كلام الله تعالى المعجز وهدي الرسول الكريم من جوامع الكلم.

وينثال على البزم – وهو ينظم – هذا التراث العظيم الذي حفظه وتمثّله: **بين أسلوب متين** موصول بالألفاظ المناسبة للمقام الموافقة لرؤيته الشعرية، ويكثر فيها الغريب، أو الذي قلّ استعماله في العصر الحديث، **ومعانٍ تتدفق في قصائده** بين مبتكرة لم يُسبق إليها، وأُخَر مولّدة ترك فيها علامات على شخصيته وأسلوبه، واختياره من الألفاظ المناسبة، الموحية، التي أدرجتها المعاجم، ولكن المتابع يجدها في أشعار بعض الشعراء الذين أعجب بهم البزم وطارت إلى شعره من عندهم، في سياقها لا من المعاجم.

والاستفادة من الأسلوب القرآني كثير،

– قال في قصيدته (دمشق) في صفة أخلاق أهلها مستفيدًا من قصة داوود عليه السلام[٣٨] .

لـو أعطيَـتْ زُبَـر الحديـد عـزائمًا نشـــزت فـــما أعطـــت يـــدًا داوودا

(٣٧) ديوان البزم ٢: ١٥٥.

(٣٨) ديوان البزم ١: ٥.

وقال مرة أخرى، في رثاء شكيب أرسلان[٣٩]:

ألفوا الحديد فما تهابُ نفوسهم زبر الحديد حوائمًا بدمارِ

- وقال في قصيدة (نجوى) من نسق أبيات فيها مجموعة من الأقسام[٤٠]:

والذاريات وما ذرَيْ ـن سَوى ذرى الآمالِ ذَرْوا

والمنشآت تشق كالـ أعلام صدر اليمّ زهوا

والراقصات تجوب أجـ ـواز الفلا وتجوزُ حُزْوى

تهفو إلى البيت **الحرا** مِ تزجُّها الآلاف هفوا

يرغو بهم **عرفات** مس ـتعرًا بحرّ الشمس رغوا

تعشو نواظرهم إلي ـكَ خواشعًا في الحر عشوا...

ازدحمت الأبيات بألفاظ إسلامية قرآنية، وقدّمت إلى القارئ مقاصد وإيحاءات مناسبة.

وأضاف الشاعر إيحاءات أخرى من الأسماءالجغرافية العربية، والعبارات الموصولة بالحياة البدوية، مثل (عرفات) وهو من المشاعر، وحزوى موضع بالجزيرة[٤١]، استفاد منه الشاعر الاستعانة بأجواء البادية وإيحاءاتها.

وقد أوْرَد قَسَمًا كان مألوفًا في الشعر القديم «والراقصات تجوبُ أجواز الفلا»

(٣٩) ديوان البزم ١: ١٥٥.

(٤٠) ديوان البزم ١: ٦٩.

(٤١) حُزوى (بضم الحاء) موضع في ديار بني تميم (معجم ما استعجم للبكري ٢: ٤٤٣).

وهي الإبل التي تحمل الحجَّاج والمعتمرين كقول النابغة الذبياني[٤٢]:

حلفتُ بما تساقُ له الهدايا على التأويب يعصمها الدّرينُ

وربّ الراقصاتِ بكل سهبٍ بشعث القوم موعدها الحجونُ

(الراقصات هي الإبل السراع، يعني، التي يحج عليها، يُقسم الشاعر بها).

وكقول الحماسي:

أما والراقصات بذاب عِرقٍ ..... إلخ.

ومن الإشارات – والاستفادات – من الأمثال قوله:[٤٣]

ففخرك بالأهوال أوردك الرّدى وقد يصرع الإنسانَ ما هو قائلُهْ

وهذا من قول العرب: «مقتل الرّجل بين فكّيه»[٤٤]، وهناك أمثال أخرى في المعنى.

- وقوله[٤٥]:

نازلتي تفرّجي ليس بعشّكِ ادْرُجي

وهو من قول العرب: «ليس بعشك فادرجي»[٤٦].

- وقوله في رثاء الملك غازي بن الملك فيصل بن الشريف حسين، وقد

(٤٢) ديوان النابغة الذبياني: ٢٢٢ (بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم).

- وانظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ٣: ١٣٧٦.

(٤٣) ديوان البزم ١: ٢٥٧.

(٤٤) جمهرة الأمثال للعسكري ٢: ٢٢٨. (من كلام أكثم بن صيفي).

(٤٥) ديوان البزم ٢: ١٦.

(٤٦) جمهرة الأمثال للعسكري ٢: ١٩٧. أي ليس مما ينبغي لك فَزُل عنه.

رثاهم جميعًا[٤٧].

رثيـــتُ أبـــاك بعـــد أبي عـــليّ وذا مَنْعـــــاك ثالثـــــة العِـــــظاتِ

وهذا من عبارة (ثالثة الأثافي) المأثورة في كلامهم، ومن المثل: رماه بثالثة الأثافي[٤٨].

والاستقصاء يطول.

والشاعر يبني شعره في قصائده المطولة وغيرها كثيرًا على سمت شعر البداوة كلّما أمكنه ذلك، مستحضرًا ألفاظ بيئة البادية من النبات والحيوان والجماد، والأحوال.

ونحصي ـ في قصيدة واحدة: (صونوا الجزيرة)[٤٩] من المفردات: الأراكَ، والأثل، والسّدر(من النبات)، ومن الأسماء: عدنان، وأمية، وفزارة، وعبس، وقحطان، ويعرب، وعثمان.

وفي قصيدة (السجن) من المفردات الجغرافية البيئية: القفر، والآل (السّراب)، والسّبسب، والغيل والبطحاء[٥٠].

ومن ألفاظ الحيوان: البازل،والضراغم، والأشبال.

ومن ألفاظ النبات: الضّال.

ومن الأدوات القديمة: السيف.

وفي شعر البزم عبارات كثيرة تذكّر القارئ بعبارات مماثلة في أشعار عربية قديمة

(٤٧) ديوان البزم ٢: ١٣٧.

(٤٨) جمهرة الأمثال للعسكري ٢: ٤٧٨ أي رماه بداهية عظيمة.

(٤٩) ديوان البزم ١: ٢٥٧.

(٥٠) ديوان البزم ١: ٢٦٣.

(من الجاهلية فما وراء ذلك). وأضرب أمثلة محدودة.

فقد ذكر عبارة تصعير الخدّ أكثر من مرة كقوله[٥١]:

صعـــرّ الجبـــار فـــي خَطـــْ ـرتـــــه رأســـــاً وخـــــدّا

فـــأقمْ مـــن صَعَـــرِ الجبّـــ ـــــار إن حاولـــــتَ مجـــــدا

واشتهر قول بشار[٥٢]:

إذا الملـــكُ الجبـــار صَعـــرّ خـــده مشـــينا إليـــه بالسـّـيوفِ نعاتِبـــُهْ

– و «عقد الحُبوة» عبارة شائعة، وفيها كناية قال البزم من قصيدة (دمشق) يشير إلى المسجد الأموي (١ : ٣):

عَقـــدتْ مفاخِرُهـــا عليـــه حُبْـــوَةً بَرِمـــتْ بهـــا كـــفّ الزمـــان جليـــدا

– واشتهر قول الفرزدق يفخر[٥٣]:

بيتًـــا زرارةُ محتـــبٍ بفنائـــه ومجـــاشعٌ وأبـــو الفـــوارس نَهـــْشَلُ

– وقال في صفة العدوّ (غاصب فلسطين وغيرها)[٥٤]:

ما إن أصيبَ ولـن يصـابَ جريحُهمْ إلا عـــلى الأعقـــاب والأدبـــار

واشتهر في هذا قول الحماسي[٥٥]:

(٥١) ديوان البزم ٢: ٩٣.

(٥٢) ديوان بشار بن برد ١: ٧١٤.

(٥٣) ديوان الفرزدق ٢: ٧١٤.

(٥٤) ديوان البزم ٢: ٣٨.

(٥٥) حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي ١: ١٩٩، وهو الحصين بن الحمام المرّي.

ولسنا على الأعقاب تَدْمى كُلومنا ولكنْ على أقدامنا تقطُرُ الدّما

- وقال يحض الشرق (العرب والمسلمين) على النهضة[٥٦]:

أشَرْقُ انتبهْ وانبذْ خمولًا عشقتَهُ وصِحْ في دعاةِ الجهل أنْ لا تلاقيا

- واشتهر قول الشاعر[٥٧]

وقد يجمع الله الشّتيتين بعدما يظنّان كلّ الظن أنْ لا تلاقيا

وأختم هذه الفقرة بملاحظتين:

الأولى: ظهور سعة محفوظه اللغوي، وهو محفوظ متوثّب حيوي الحركة في المفردات النوعية التي تساعد على تقديم الفكرة واضحة، وتتيح للشاعرية ألا تقلق أو تضطرب أو تتحجّر. وهكذا كان أسلوبه يتأثر بارتفاع نبرة الكلام في الموضوع المعالج وبحماسة المبدع الذي يفيض مشاعر تشالُ كلما وقف عند قضية أو موضوع يهتم له، وينفعل به؛ ومثلُ ذلك كلامه في الوطن والاستقلال، وفي الشام، ودمشق، وفي حضارة العرب عامة، وعصر الأمويين خاصة، وكلامه في اللغة العربية وقضاياها، و في استفحال أمر كيان العدو الغاصب لفلسطين، وحال الدنيا كما يراها...

والثانية: أنه – في تقديري الذي بنيتُه على قراءة الديوان مرّات – لم يكن في منهج محمد البزم الفني أن يُغرب في الشعر لكي يظهر علمه بالغريب، وحفظه للغة. لقد انطلق من رؤيته الخاصة لصنعة الشعر وأفقه الأسلوبي الذي اختار التحليق فيه بقوة السيطرة على اللغة لا باستجلابها، ومن هنا لم تكثر في شعره القوافي الصعاب أو النُفّر،

(٥٦) ديوان البزم ١: ٢٤٥.

(٥٧) البيت في اللّسان (ش ت ت) ونسبه في الفهارس إلى جميل بثينة، وليس في مجموع شعره.

ففي الديوان بجزأيه: قصيدتان على الذال والزاي، وواحدة على الشين، والصاد، والضاد، والطاء والظاء والغين، ولم يورد شيئًا على قافية الخاء و لا الكاف.

ونقف عند المقطع الثاني عشر من مقاطع مطوّلته في رثاء شكيب أرسلان (١ : ١٥٩) مناسبًا بين الألفاظ والمعاني، مقاربًا في «نصّه» ما يلائم الفقيد شكلًا ومضمونًا؛ فقال:

مهلاً أميرَ الدّولتين ووقفةً ... تقضي ـ حقوقَ المجدِ غيرَ صِغارِ

ومُلاعب السيفين سيفِ بلاغةٍ ... وفِرَندِ ذي شُطبٍ لِصَوْن ذمارِ

ومسدّد الرمحين: رمح فصاحةٍ ... وأخوه في كبد الهِزَبرِ الضاري

ومُفوّق السَّهمين سهمِ حَنِيَّةٍ ... وشهاب داجيةٍ وفصلِ حِوارِ

ومظاهر الدّرعينِ جَوْشنِ غارةٍ ... وحبيكِ قافيةٍ ليومِ حضارِ

ومحبّر البُردين مُهرق حكمةٍ ... ورداء مكرمةٍ لساعِ نفارِ

ومؤرّثًا في ظلّ أرعْنَ باذخٍ ... نارين نارِ قِرًى ونار بِدارِ

ومخلّف الشعراء دون ثنيّةٍ ... يَزَنيّةِ الأوطارِ والمقدارِ

وموزّع العزماتِ في الأَزماتِ لم ... تفتأ تداوِرُ أمرَها وتُداري

(٥)

وكان في الشعراء أعلام أعلن محمد البزم إعجابه بهم، وسار في مواكبهم، وخصّ بعضهم بقصائد مفردة كالذي صنعه في المتنبي والمعري. و كانت أشعار الشعراء الكبار في الأعصر المختلفة بين يدي البزم من الجاهليين والإسلاميين والأمويين والعباسيين، ووصل إلى أهل الأندلس على قلّة، وما كان بين أيدي الناس من تراثهم المطبوع في

النصف الأول من القرن العشرين من التراث الأندلسي.

- وقد نظر إلى أبي تمام في وصفه للقلم حين مدح محمد بن عبد الملك الزيات (لك القلم الأعلى..) فقال[٥٨]:

مفردٌ يمشي على واحدةٍ بثلاث فوقه لا يأتلينْ
وله إن جال في قرطاسه جولة المُعْلَمِ في الحرب الزبونْ

ووصْفُ البزم للقلم طويل.

- وحذا حذو أبي نواس فقال يصف الخمرة[٥٩]:

فلقاح الداء بالداء به يشفى العليلْ

وهو من قول الحكمي[٦٠]:

دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءُ وداوني بالتي كانت هي الداءُ

- وقال يشبّه السفن العظام بالجبال[٦١]:

شمٌّ تحاول عند الشهب كسوتها عمائمًا فتلوثُ الغيم عربونا

وهذا يشمّ رائحة قول ابن خفاجة (في وصف الجبل)[٦٢]:

يلوثُ عليه الغيمُ سودَ عمائمٍ لها من وميضِ البرقِ حُمر ذوائبِ

(٥٨) ديوان البزم ٢: ٢٦٦.
(٥٩) ديوان البزم ٢: ٩٠.
(٦٠) ديوان أبي نواس ٢: ٣.
(٦١) ديوان البزم ١: ٣٠.
(٦٢) ديوان ابن خفاجة: ٢١٦.

- وقال في قصيدة أخرى[٦٣]:

وقـور عـلى هـام العصـور كأنهـا وما سئمت طـولَ السّـفار رواحلُـهْ

وهو من قول ابن خفاجة في وصف الجبل[٦٤]:

وقـور عـلى ظهـر الفـلاة كأنـه طـوال الليـالي مطـرقٌ في العواقـب

- وقال في قصيدة الجلاء[٦٥]:

حلـّق بجـّوك واخفـقْ أيهـا العلـمُ فـالأفقُ طلـقٌ ووجـه الأرض يبتسـمُ

ولابن زيدون[٦٦]:

إني ذكرتـك بـالزهراء مشتاقـا والأفـق طلـقٌ ووجـهُ الأرض قـد راقـا

والمتنبي من مُثل محمد البزم الشعرية العظيمة، يمرّ بشعره فيستفيد عبارةً، أو لمحة معنى، فيديرُ ذلك بأسلوبه ومقصده، وقد قال[٦٧]:

ومـن مزعجـات العـيش أو طيّبـاته عـدوّ تُغـاديه وخـِلٌّ تـؤازِرُهْ

وله صلة بقول أبي الطيب[٦٨]:

ومـن نكـد الـدنيا عـلى الحـرّ أن يـرى عـدوًّا لـه مـا مـن صداقَتِـهِ بُـدّ

(٦٣) ديوان البزم ١: ١٧٥.

(٦٤) ديوان ابن خفاجة: ٢١٦.

(٦٥) ديوان البزم ١: ٥٧.

(٦٦) ديوان ابن زيدون: ١٣٩.

(٦٧) ديوان البزم ١: ٢٣٣.

(٦٨) ديوان المتنبي: ١٨٤.

- وقال يخاطب المتنبي[٦٩]:

تمرّستَ بالآفات لم تشكُ وقعها ... ولا خدّ في خديك مِ الدّمع جائلُهْ

وقد قال أبو الطيب يتحدث عن نفسه[٧٠]:

تمرستُ بالآفات حتى تركتها ... تقول أماتَ الموتُ أم ذُعِرَ الذعرُ

- وقال[٧١]:

أعيذ قوميَ من أن يستبدّ بهم ... ليلُ الكرى فيُرَوا لحمًا ولا وضَمُ!

ولأبي الطيب[٧٢]:

أيملك الملك والأسيافُ ظامئةٌ ... والطير جائعةٌ لحمٌ على وَضَمِ

وقصيدة (المتنبي) في ديوان البزم من مطوّلاته أولّها[٧٣]:

أجلْ طلعتْ راياتُه وجحافلُهْ ... وقامتْ له في كل صقع جحافلُهْ

وساقت له أم النجوم كتائبًا ... مواكبُ تُحْيي ليله وتغازلُهْ

وصفَّ له نعش السّماء بناتِه ... سوافر تستهوي له مَنْ يُزايلُهْ

وبالمناسبة فإن كناية (أم النجوم) هي في شعر تأبط شرًّا، وفسّرها المرزوقي بالمجرة وبالشمس، وفسَّرها ابن السِّيْد البطليوسي الأندلسي- بالثريا. وهي المقصودة في

(٦٩) ديوان البزم ١: ١٨١.

(٧٠) ديوان المتنبي: ١٧٥.

(٧١) ديوان البزم ١: ٦٣.

(٧٢) ديوان المتنبي: ٣٣.

(٧٣) ديوان البزم ١: ١٧٥.

تقديري في الشعرين[٧٤].

ومطلع قصيدته في المعري كمطلع هذه القصيدة، وعلى وزنها[٧٥]:

أجلْ هو يوم الشعر تطغى عباقرُهْ وتوقظ أسماع الزمان منابرُهْ

واستفاد من المتنبي الجزالة، وشيئًا من الفخامة، وتابعه في عدم الاكتراث بالنقّاد وهم يعترضون على بعض مفرداته، وعباراته، وصُوره، ومعانيه...

واستفاد من المعري، وقد نظم بعض شعره على طريقته في اللزوميات، كقوله في قصيدة «لنا لغة»[٧٦].

لنا لغةٌ عن سالف المجد تُعربُ فلله ما أبقى معدٌّ ويعربُ

كستْها بنان العبقرية حِليةً تميدُ لها غُلْبُ العقولِ وتَطربُ

فقد أضاف (الراء) إلى ما التزمه في القافية (الباء)

- وكقوله في قصيدة (صورة)[٧٧]:

ومضلّلٍ يهوى الثراء فدهره متقلّب بقوالب الأسبابِ

ذو لحيةٍ شهباء تحت عمامة لألاءة لغوايةِ الألبابِ

ذو خفةٍ عبثت به شيخوخةٌ مُزجت بماء كهولةٍ وشبابِ

(٧٤) انظر ديوان تأبط شرًا – جمعه وحققه علي ذو الفقار شاكر – دار الغرب الإسلامي (١٤٠٤ – ١٩٨٤) ص ١٥٦، وانظر حماسة أبي تمام بشرح المرزوقي القصيدة ١٣، وشروح سقط الزند ٢١٣، وثمار القلوب في المضاف والمنصوب للثعالبي: ٢٥٦.

(٧٥) ديوان البزم ١: ١٨٧.

(٧٦) ديوان البزم ١: ٢٣٠.

(٧٧) ديوان البزم ٢: ١٠.

- فإنها من أسلوب لزوم مالا يلزم.

وارتبط البزم في بعض تشاؤمه بإعراض المعري عن الحياة وتركها تركًا قاصدًا. على أنّ هذا يخصّ المعاني والمقاصد الشعرية مما يحتاج إلى بحث مستقلّ؛ وانظر قول البزم[٧٨]:

طال سُخطي على الحياة فويلٌ لغبيَّين في الورى أوْجداني

ضقتُ ذرعًا بظلم هذي الليالي وبنيها من نازحٍ ومُدانِ

وهذا من قول المعري[٧٩]:

هذا جناه أبي عليْ .. يَ وما جنيتُ على أحَدْ

- ونلاحظ عبارة (الغبيين) في شدّتها وقسوتها.

وللبزم إعجاب بشوقي وحافظ. وهو يتولّى أحمد شوقي مُعجبًا به، وقد عارضه في بعض قصائده كقوله[٨٠]:

وثبت تطالب بالسفور حسناء معدمة النظيرِ

وعارض قصيدته الأندلسية[٨١]:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا نأسى لواديك أم نأسى لوادينا

ومن الطريف استفادته من بيت ذائع لصديقه خير الدين الزركلي:

---

(٧٨) ديوان البزم ٢: ٢٣.

(٧٩) البيت شائع في تراجم المعري (انظر تعريف القدماء بأبي العلاء ١٥٦ ومواضع كثيرة).

(٨٠) ديوان البزم ١: ٢٧٩.

(٨١) ديوان شوقي ١: ١٤٧.

لـــو مثـــّلوا لي مـــوطني وثنًـــا لهممـــــت أعبـــُد ذلـــك الوثنـــا

فقال هو يذكر يوم الجلاء[٨٢]:

يـومَ الجـلاء ومـا في الأرض ذو عظـمٍ يبغـــي كفـــاءك إلا خـــانه العِظـــَمُ

لـو كنتَ فـي عهـد آبـاءٍ لـنـا غـبرتْ في الجاهليـــة لم يـــُعبَدْ لهـــا صَـــنَمُ !

فالزركلي انشغل بالمكان (الوطن) والبزم اشتغل بالزمان (يوم الجلاء).

(٦)

مـن الملامـح الأسـلوبية ذات الأهميـة في ديـوان البـزم أمـورٌ لم ينبـّه عليهـا دارسـو شعره؛ وهي جديرة بالملاحظة لأنها تكمّل الصورة أولًا، ولأنها تخفّف الغلواء اللغوي والأسلوبي الذي يوصف به شعر البزم.

أ) نظم البزم منظومةً خالف فيها في الـوزن بـين صـدر البيـت وعجـزه، عـلى نهـجٍ سلك مثله شعراء كُثْرٌ في سورية والمهجَر الذين طوّروا نظام الموشّح، واستفادوا منه.

قال البزم[٨٣]:

طلعـــتْ والشـــمس في صـــفرتها يحتويهـــــــــــا المغربـــــــــــانْ

فـــاختفى التـــبر حيـــاءً وانجـــلى عـــــــن لجـــــــينٍ وجمـــــــانْ

وهذا خارج عن عروض الشعر العربي التقليدي.

ب) ونظم الرجز على نظام المزدوج الذي انتشر في العصر العباسي، كقوله[٨٤]:

(٨٢) ديوان البزم: ٥٧.

(٨٣) ديوان البزم ١: ٢٩٠.

(٨٤) ديوان البزم ١: ٣١٧.

كـم لي وحُـرّ الشـمس في أغيـالي ... مـا يـُطرب الأيـام و الليالـي
تشـدو بـه القيـان في النـوادي ... وتشـرئب نحـوه الهـوادي
يعبـث مـن أهـل النهـى بالهـامِ ... ويحـدث النشـوة في الأوهـام

- وتلاحظ غرابة الألفاظ في الأبيات، وهي تلائم بحر الرّجز الذي كان موصولًا قديمًا بالبداوة.

ج) وجارى محمد البزم محمود سامي البارودي، وأحمد شوقي (الذي تابع البارودي) فنظم على وزن لم يُستعمل من قبل، وعـُدّ تجديدًا، وذلك قول البزم تحت عنوان «أفكوهة»[٨٥].

صـابرَ القـَدرْ ... وازدرى الخـَبرْ
ثـائر الحشـا ... ثـائـر الفِكـرْ

وأول قصيدة البارودي[٨٦]:

امـلأ القـَدحْ ... واعـْصِ مـن نصـحْ
وارْوِ غـُلّـتي ... بـابنـة الفـرحْ

ومطلع قصيدة أحمد شوقي[٨٧]:

مـالَ واحتجـبْ ... وادّعـى الغـَضـَبْ

(٨٥) ديوان البزم ١: ٢٣١.
(٨٦) ديـوان البـارودي، تحقيـق علي الجارم وتحقيـق محمـد شـفيق معـروف - دار المعـارف بمصـر: ١١١.
(٨٧) ديوان شوقي ١: ٤٩.

– ووزن الشعر «فاعلن فعل» . قال محققا ديوان البارودي: هذه القصيدة من مجزوء المتدارك، ولم تنظم العرب على هذا الوزن فيما نعلم.

د– كثرت في الجزء الثاني من ديوان البزم القصائد القصيرة، والقطع، وفيها عددٌ من «القصائد» تتعدد فيها القوافي. كل بيتين يختصان بقافية، وأغلبها جاء على مجزوء الرمل، ومنه تحت عنوان مملكة الشعر[٨٨] .

غربتْ شمسيَ إلا ... لهبة في ذا الشَّفقْ

ترشد الهمّ إلى قلـ ... ـبي وتذكي بي الحُرَقْ

وتوارى البدرُ إلا ... قبساً في النيّراتِ

نبّهت من لاعج الشـ ... ـوق وأَذْرَتْ عبراتي

غنّ يا صدّاحُ فالأفـ ... ـقُ لنا مِلكٌ ثمينْ

وكذا الأفلاك ملك الشـ ... ـعراء النابهينْ

أيقظ العود وهِجْ نخـ ... ـوة هذا الوادع

فعسى يعملُ كفّيـ ... ـه بقيدِ الخادِعِ

هـ) وفي شعر البزم، في مواضع متفرقة من ديوانه، استفادةٌ قاصدة من الألفاظ الشائعة الدارجة، ومن الثقافة الشعبية الدمشقية في أسواقها ودكاكينها، ومع الزبائن من كل نوع..

– قال البزم[٨٩] :

(٨٨) حاشية ديوان البارودي: ١١١.

(٨٩) ديوان البزم ١: ٢٢٨.

فلو سمعوا عن أحمق القوم سُحْرَةً «بخَرْفَشة» شَدّوا إليها وبكّروا

وفي محيط المحيط (خ ر ف ش): «خرفش الشيء: خلطه فهو مخرفِش وذاك مخرفَش. والعامة تقول: فلان يخرفش في كلامه أي: يأتي بكلام غير مهذب» وينظر معجم دوزي: تكملة المعاجم العربية[٩٠].

وأورد البزم الكلمة على وجه آخر «خرشَف»، قال[٩١]:

كلف بخرشفة النحاة مخادع بالبيّنات وسابغ الجلباب

وفي اللغة خرشف القوم: تحركوا واختلط كلامهم؛ فالأُولى أخذها عن الدارجة، والثانية من الفصيح.

- ومن طريف هذا الجانب قوله من قصيدة عنوانها «ذهبت ذقنك»[٩٢]:

ذهبتْ ذقنك مَرْشا فاحتكمْ لي تُعطَ أرشا

فجزاءُ المعتدي بالـ ... ـمَرْشِ أنْ يغرم قِرشا !..

وعبارة: «ذهبت ذقنك مرشا» عبارة شامية ما تزال شائعة، تُقال فيمن فاتهُ حظٌّ من دعوةٍ أو جائزة أو إكرام وما شابه، وعبارتهم الأصلية « راحت دقنك مرش».

- وقال في قصيدة «دواء الهَرَم»[٩٣]:

أسمع المحزون من لحـ ... ـنيكَ ما يُحيي الرّممْ

(٩٠) تكملة المعاجم العربية ٤: ٦٦.

(٩١) ديوان البزم ١: ١١.

(٩٢) ديوان البزم ٢: ٣٠.

(٩٣) ديوان البزم ٢: ٩٥.

ويَـــــرُدّ الشـــــرّخ لِشـــــْ ... ـــــشَيْخ ويُـــــودي بـــــالهرمْ !

والإشارة واضحة إلى كتاب شائع في الطبقات الشعبية (ويوجد في غيرها): «رجوع الشيخ إلى صباه»[٩٤].

ويؤكد هذا الفهم قوله في موضع آخر[٩٥]:

عشـــق النهـــرُ مـــن الأيـــ ... ـــــكِ غُصـــــونًا وقُـــــدودا

– وفيه إشارة إلى كتاب على النّسق المذكور.

وقال في قصيدة «أجل نعم»[٩٦]:

«ولم يمـــتْ مـــن قـــد نـــَجلْ» .....

وهذا من قول الناس: «من خلّف ما مات»[٩٧].

وقال في الهجاء[٩٨]:

يا عَظْمَة الدّست قد أوقرت واعيةً براكـــدٍ ســـال مـــن شِدْقيـــْك مســـنونا

والدّست تستعمل في الدارجة الشامية لمعنى القدر الكبير، وقوله يا «عظمة الدست» إشارة إلى مثل شعبي: «ما بيقرقع بالدست إلا أوشم العظام»[٩٩]، إن العظمة

(٩٤) نسب الكتاب إلى التيفاشي وغيره.

(٩٥) ديوان البزم ٢: ٩٥.

(٩٦) ديوان البزم ٢: ٧٦.

(٩٧) والمثل باقٍ على ألسنة الناس في الشام وغيرها.

(٩٨) ديوان البزمً ٢: ٩٩.

(٩٩) وقولهم « أوشم» أي أسوأ. وأصل الكلمة العامية من الشؤم الفصيحة ثم بدّلوا وحَرّفوا.

التي تصدر صوتًا عند التحريك هي عظمة لا لحم عليها فهي قليلة الفائدة. يشبه به الرجل له جلبة وصوت ولا فعل له !

- وقرأ فيما يكتب ويُعلّق على الجدران في المَحالِّ والدور«يقيني بالله يقيني »، فقال[١٠٠]:

فيقينـــي أنّ الـــردى ســـيقيني وقفـــة الهـــون في فـــناءِ اللئـــيمِ

- ووصف الحظّ بالأسود كوصفِ الناس[١٠١]:

فضـــلٌ كـــما تهـــوى العُـــلا زاهٍ، وحـــــظٌّ أســـــودُ !..

(٧)

وفي شعر البزم قصائد ومقاطع يميل فيها إلى الأسلوب السَّهل، وإن كان مستمرًا على متانة العبارة وقوة السَّبك متجاوزًا اللفظ الغريب البعيد، مكتفيًا بالقريب المتداول، كقوله من قصيدة عنوانها: طرح الضمير[١٠٢]:

أوزيـــرُ مـــا أنـــتَ المُـمَـتْـــ ... ـتَـــعُ بالبقـــاء علـــى السّريـــرِ

أنـــت الأسيـــرُ ولـــو دُعِـمْـــ ... ـــتَ مـــن الملـــوك بأزْدَشيـــرِ

ولـــربّ عاريـــةٍ سعـــتْ رغـــمَ المُعـــارِ إلـــى المُعيـــرِ

يـــا هُجْنـــةَ الفلـــك المـــدُا ... ر، حـــذارِ مـــن غضـــب المديـــرِ

واحـــذرْ وقـــد عقـــل الزمـــا ... نُ، وناوأتـــك يـــدُ المشيـــرِ

(١٠٠) ديوان البزم ١: ١٧٢.

(١٠١) ديوان البزم ١: ٢٢٥.

(١٠٢) ديوان البزم ٢: ٣٢ – ٣٣.

وخرجْـتَ مـن غضـب الضميـ ... ـير علـى أقـلَّ مـن النقيـرِ
مـن أن تبيـت ولسـت في الـ ... ـعيْـرِ الخـطيرِ ولا النفيـرِ
أو أن يقـال هـوى الوزيـ ... ـرُ مـن السريـر إلى الحصيرِ

ويكثر مثل هذا في الجزء الثاني من الديوان.

(٨)

هذه إلمامة بقضية اللغة والأسلوب في شعر محمد البزم، وهي إلمامةٌ مأطورة بما يتاح عادة لبحث في مجلة أو دورية. ولكنها تفتح الباب لدراسة شاملة لشعر محمد البزم: استيفاءً واستقصاءً، وموازنة، ومقارنة؛ فإن ما كتب عنه، على أهميته، وإضاءته، هو أيضًا بداية. فالبزم يحتاج إلى:

١ – تحقيق ديوانه: بالمعنى المعروف لكلمة التحقيق: تقديمًا وتدقيقًا، وذكرًا للمناسبات، وكشفًا عن مقاصد الإشارات، وربطًا بين الشعر والشاعر، وشرحًا لما يحتاج إلى شرح من ألفاظه، وإيضاحًا وتبيانًا لما يحتاج إلى إيضاح وتبيان،من سائر نظمه.

٢ – دراسة شخصية الشاعر من أخباره من جهةومن ديوانه من جهة أخرى على منهج علمي،في دقة وأناة؛ وعسى أن يكون ذلك من باحث متمكن متمرس،فإنه لا يصح أن يكون ذلك رسالة جامعية (على ما نرى من أكثر الرسائل).

٣– دراسة شعره دراسة مفصّلة.

٤ – دراسة ما يُلتقط من آثاره النثرية.

وإذا كنتُ قد عرضت لجوانب في شعر البزم وحياته لم يقف عندها الدارسون من قبل – وخاصة فيما يتعلق بالوجه الآخر من لغته وأسلوبه – فإنها تحتمل الإضافة والإفاضة، وتحتاج إلى استقصاء لا تحتمله صفحات البحث المحدودة.

مصادر ومراجع

١) **الأدب العربي المعاصر في سورية** – سامي الكيالي – دار المعارف بمصر ط٢ – ١٩٦٥م .

٢) **الأعلام** – خير الدين الزركلي – دار العلم للملايين – ١٩٩٧م.

٣) **تكملة المعاجم العربية**– رينهارت دوزي – ترجمة محمد سليم النعيمي، وأكمل الترجمة جمال الخياط، وزارة الثقافة والفنون – بغداد – ١٩٧٦ – ٢٠٠١م.

٤) **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي** – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار النهضة بمصر – القاهرة – ١٩٦٥م .

٥) **جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري** – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش – دار الجيل – بيروت – ١٩٨١م.

٦) **حماسة أبي تمام (بشرح المرزوقي)** – تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون – لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة.

٧) **ديوان البارودي** – (محمود سامي باشا البارودي) حققه وضبطه وشرحه علي الجارم ومحمد شفيق معروف – دار العودة – بيروت – ١٩٩٢م.

٨) **ديوان البزم** – بعناية سليم الزركلي وعدنان مردم بك – المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – دمشق – ١٩٦٠م.

٩) **ديوان تأبط شرًّا** – صنعه علي ذو الفقار شاكر – دار الغرب الإسلامي – ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.

١٠) **ديوان جميل بثينة** – جمعه د. حسين نصار – مكتبة مصر – القاهرة. غير مؤرخ.

١١) **ديوان ابن خفاجة** – تحقيق السيد مصطفى غازي – منشأة الإسكندرية – مصر– ١٩٦٠م.

١٢) **ديوان الزركلي** – مؤسسة الرسالة – ١٩٨٠م.

١٣) **ديوان ابن زيدون** – عناية علي عبد العظيم – مكتبة نهضة مصر – القاهرة– ١٩٥٦م.

١٤) **ديوان شوقي** – بعناية د. أحمد الحوفي – نهضة مصر – القاهرة. غير مؤرخ.

١٥) **ديوان أبي الطيب المتنبي** – بتحقيق د. عبد الوهاب عزام – لجنة التأليف والترجمة والنشر –

القاهرة- ١٩٤٤م.

١٦) **ديوان عبد القادر بدران** (تسلية الكئيب عن ذكرى الحبيب)- اعتنى به نور الدين طالب دار النوادر – دمشق – ٢٠٠٧م.

١٧) **ديوان الفرزدق** – تحقيق عبد الله الصاوي – المكتبة التجارية – القاهرة- ١٩٣٦م.

١٨) **ديوان النابغة الذبياني بشرح الأعلم الشنتمري الأندلسي** – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف بالقاهرة – غير مؤرخ.

١٩) **ذكريات** – علي الطنطاوي – دار المنارة للنشر – جدّة – ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٠) **شروح سقط الزند للمعري** – لجنة من المحققين بإشراف د. طه حسين – طبعة الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢١) **الشعراء الأعلام في سورية** – د. سامي الدهان – مكتبة الأنوار- بيروت – ١٩٦٦م.

٢٢) **شعراء سورية** – أحمد الجندي – دار المكشوف – بيروت - ١٩٦٥م.

٢٣) **محمد البزم** – د. إبراهيم الكيلاني – منشورات مجلّة الثقافة – دمشق. غير مؤرّخ.